غزليات نيرودا

ديـــــوان
أشـــعـــار
القـــبطـــان

تـــأليـــف : بابلـو نـيـرودا
تـرجمـــة : ماهـر البطوطى



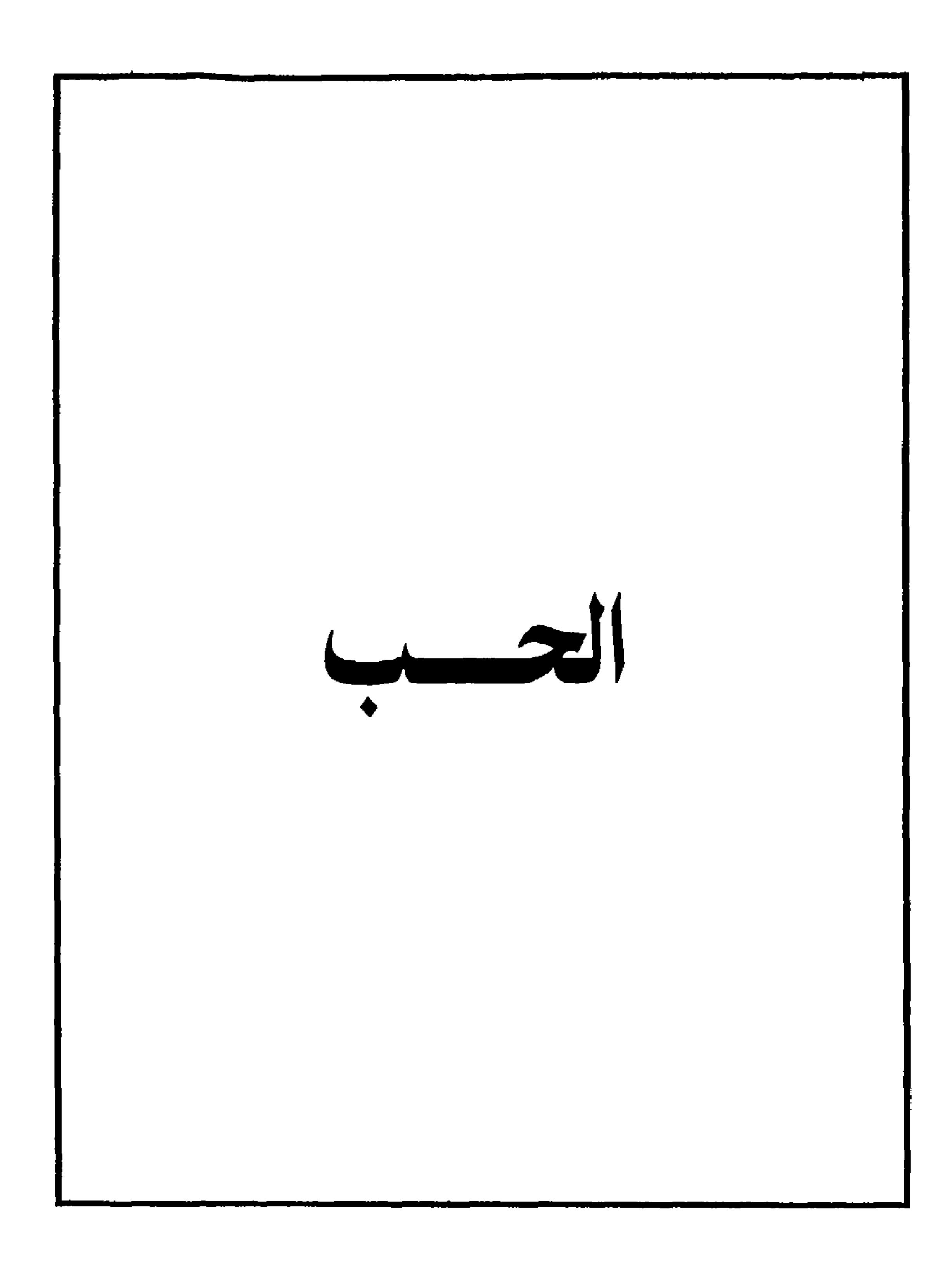
الهيئة المصرية العامة للكتاب
٦١٩٩

الغلاف :

أميمة على أحمد

الإخراج الفنى والتنفيذ

صبرى عبد الواحد



الحب

الأرض فيكِ

أيتها الوردة الصغيرة

يا وُريدة

تبدين أحيانا

دقيقةً عارية

كأن إحدى يديّ

تسعك

وأنني سوف أضمك

وأرفعكِ الى فمي .

ولكن ، فجأة

تلمس قدماى قدميكِ

ويلمس فمى شفتيكِ :

عندئذ تكبرين

ويتطاول كتفاك كأنهما ربوتان

ويرتع نهداك فوق صدرى

ويكاد ذراعى

لا يحيط ببدر خصرك النحيل :

لقد أطلقتِ سراح نفسك

فى أغمار الحب

كأنها المياه المنسابة

فلا أكاد أقيس

عينيك الأكثر رحابة من السماء ،

وانحنى على ثغركِ

لأمنح قبلة للأرض .

الملكة

لقد أعلنتكِ ملكةً.

ثمة فتيات أطول منكِ

أطول

وثمة فتيات أصفى منكِ

أصفى

وثمة فتيات أجمل منكِ

ثمة أجمل .

ولكنكِ أنتِ الملكة

حين تخطرين في الطرقات

لا يتعرف عليكِ أحد

لا أحد يرى تاجك البللوري ،

لا أحد يرى البساط الأحمر

الذي تخطرين عليه حين تمرين

البساط الذي لا وجود له .

وحين تظهرين

تهدر جميع الأنهار في جسدي

وتهز النواقيس عنان السماء

وثمة نشيد يملأ الدنيا

طولا وعرضا .

أنتِ وأنا فحسب ،

أنتِ وأنا فحسب يا حبيبتي

نسمعه .

صانع الفخار

جسدك كله

فيه اكتمال و عذوبة

مقدر ة لى

حين أحرك يدك الى أعلى

أحد في كل مكان حمامة

تبحث عنى

كأنما هم يا حبيبتى

قد صنعوك من الصلصال

من أجل يدى" التى تصنع الفخار

ركبتاك ، نهداك

خصرك

إن هى إلا أجزاء مفقودة منى

كالشق فى الأرض العطشى

يكسرون منه جرعا

ونحن معا نتمم بعضنا بعضا

كالنهر الواحد ،

كحبة الرمال الواحدة

٨ سبتمبر

اليوم ،

هذا اليوم

كان كأسا مترعا

اليوم ،

هذا اليوم

كان موجة عارمة .

اليوم ،

كان الأرض كلها .

اليوم ،

رفَعَنا البحر العاصف

فى قبلة

بلغ من علوها

أن ارتجفنا فى ضوء البرق

وهبطنا معا الى أسفل

وقد انعقد الواحد منا الى الآخر

دونما فكاك .

اليوم ،

نطاول جسدانا واتسعا

ونميا حتى بلغا حدود الدنيا

ودارا ذائبين

فى نقطة واحدة

من الشمع أو من الشهب .

وانفتح باب جديد بينى وبينك

وكان هناك شخص ما

لا يكاد يبين له وجه

في انتظارنا هناك .

قدماكِ

حين لا أستطيع أن أنظر الى وجهك
أنظر الى قدميكِ .

قدماكِ
من العظم المعقوف
قدماكِ الصغيرتان الصلبتان .

إنى أعرف أنهما يدعمانك
وأن ثقلكِ العذب

يقوم عليهما .

خصرك ونهداك ،

وأرجوان حلمتيك المضاعف ،

ومرقد عينيك

اللذين طارا لتوهما ،

وثغرك العريض الفاكهى ،

وشعرك الأحمر

هو برجى الصغير .

ولكنى لا أعشق قدميكِ

إلا لأنهما قد مشيتا

على الأرض

وعلى الرياح

وعلى المياه

الى أن التقتا بى .

يداكِ

حين تندفع يداكِ

يا حبيبتي

تجاه يديّ ،

ماذا تقدمان لي ،

إذ هما تطيران ؟

لماذا تتوقفان فجأة عند فمي

ولماذا أتعرف عليهما دائما

كما لو كنتُ قد لمستهما

الآن ومن قبل

كما لو كانتا قد عبرتا فوق جبيني

وفوق خصرى

من قبل أن توجدا ؟

لقد هفهفت عذوبتهما

فوق الزمن وفوق البحر ،

فوق الدخان وفوق الربيع !

وحين وضعتِ يديك على صدرى

عرفتُ فورا

جناحىْ تلك اليمامة الذهبية

عرفتُ فورا

ذلك الصلصال

ولون القمح ذاك .

لقد تجولت طوال سنوات عمرى

بحثا عنكِ

صعدتُ السلالم

وعبرتُ الطرق

وحملتنى القطارات

وأعادتنى المياه

واعتقدتُ اننى قد لمستكِ

عندما لمستُ حبات الكَرْم .

ويعيد لى صقيل الخشب فجأة

ملمسكِ الى ذهنى

وتهتف بى شجرة اللوز

بعذوبتكِ الخفية

الى أن تنغلق يداكِ فى صدرى

وتنهيان رحلتهما هناك

كأنهما جناحان صغيران .

ضحكتكِ *

امنعي عني الخبز إذا أردتِ

امنعي عني الهواء

ولكن

لا تمنعي عني ضحكتكِ .

لا تمنعي عني الوردة

الرماح التي تنتثر منها

المياه

---

* نُشرت هذه القصيدة قبل ذلك في مجموعة "اسبانيا في القلب" الصادرة عن الهيئة العامة للكتاب .

التى تنبجس فجأة فى فرحتك
الموجة الفضية المباغتة
التى تولد منكِ

إن صراعى مرير
ومرات كثيرة
أعود متعب العينين
من رؤية الدنيا التى لا تتغير

ولكن ، حين أدخل
تنطلق ضحكتكِ الى الأعالى
باحثة عنى
وتفتح لى
أبواب الحياة كلها .

يا حبيبتى ،

فى أحلك الأوقات

تتناثر ضحكتكِ

فإذا رأيتِ فجأة.

دمائى تخضب حجارة الطريق

فاضحكى

لأن ضحكتكِ ستهب يدى

سيفا مسلولا .

وفى الخريف

بالقرب من البحر

لا بد لضحكتكِ

أن ترفع شلالات من الزَبَد.

وفى الربيع يا حبيبتى

أحب ضحكتكِ

لأنها كالزهرة التى أرتقبها

الزهرة الزرقاء

زهرة وطنى المرنانة .

اضحكى من الليل

من النهار ، من القمر

اضحكى من شوارع الجزيرة الملتفة

اضحكى من هذا الفتى الذى يحبكِ

ولكن

حين أفتح عينى وأغمضها

وحين تذهب خطاى

وحين تُعود خطاى

امنعى عنى الخبز ، والهواء

النور والربيع

ولكن

لا تمنعى عنى ضحكتكِ

إذ أنى عندذاك موتا أموت .

القَلْبُ

لقد خرجت عيناى من محجريهما

سعيا وراء فتاة سمراء

مرت من أمامى .

كانت مجبولة من العقيق الأسود

مضفورة بحبات التوت الأرجوانية

وساطت دمائى

بذيلها النارى .

إنى أسعى وراءهن

وراءهن جميعا أسعى .

ومرت أمامى شقراء شاحبة

كأنما هى نبات مجبول من ذهب

وهى توازن بين مفاتنها .

وراح فمى ، كالموجة ،

يطلق إبراقات من الدم

فوق نهديها .

إنى أسعى وراءهن

وراءهن جميعا أسعى .

ولكن ،

اليكِ أنتِ

دون أن أنتقل من مكانى

ودون أن أراكِ

يذهب دمي وقبلاتي

أي سمرائي وشقرائي

أي طويلتي وصغيرتي

أي عريضتي ونحيلتي

أي قبيحتي وفاتنتي .

أنتِ مجبولة من كل أنواع النضار

ومن كل أنواع اللجين

من القمح جميعه

ومن الأرض كلها

مجبولة من كل المياه

ومن موجات البحار

مجبولة من أجل ذراعيّ

مجبولة من أجل قبلاتي

مجبولة من أجل روحي .

الليل فوق الجزيرة

لقد نمتُ الى جوارك طوال الليل
على شاطئ البحر ، فى الجزيرة
كم كنتِ وحشية لذيذة
بين اللذة وبين المنام
بين النيران وبين المياه .

ربما التقت أحلامنا
متأخرة أكثر من اللآزم
فى القمة أو فى القاع

فى الأعالى

كالأفنان يهزها الريح

وفى أسفل كالجذور الحمراء

يلامس بعضها بعضا .

ربما ابتعد حلمكِ عن حلمى

وراح يبحث عنى وسط البحر المظلم

كما حدث منْ قبل

حين لم تكونى بعدُ موجودة

حين أبحرتُ الى جوارك

ولم أكنْ أراك بعد

وبحثت عيناكِ

عما أغمركِ به الآن :

الخبز والنبيذ والحب والغضب .

لأنكِ أنت القدح

الدى كان ينتظر عطايا حياتى

لقد نمت الى جوارك

طوال الليل

بينما تدور الأرض العمياء وتلف

بأحبائها وأمواتها .

وحين استيقظت فجأة

فى وسط الظلال

التفت ذراعاى حول خصرك

فلا الليل . ولا النوم

استطاعا أن يفرقا بيننا

لقد نمت الى جوارك

وعند الاستيقاظ

وجدت فى ثغرك

الخارج توا من النوم

طعم الأرض

طعم المياه البحرية

طعم طحالب البحر

طعم أعماق حياتكِ .

واستقبلتُ قبلتك

وقد رطَّبها الفجر

فكأنما جاءتنى

من البحر الذى يحيط بنا

الريح في الجزيرة

الريح حصان

انصتي اليه كيف يجرى خببا

خلال البحر ، وخلال السماء

يريد أن يحملنى ،

انصتي اليه كيف يجوب العالم

كيما يحملنى معه بعيدا

خبئينى بين ذراعيكِ

هذه الليلة فحسب ،

بينما تكسر الأمطار

على البحر وعلى الأرض

ثغرها الذى لا يحصره عد

انصتى كيف تنادينى الرياح

وهى تخبُّ كيما تحملنى بعيدا

اتركى الرياح تندفع

مجللة بالزَبَد

دعيها تنادينى وتبحث عنى

خببا فى الظلال

بينما أنا -

غارقا فى عينيكِ الواسعتين ،

هذه الليلة فحسب -

أنام مستريحا

الى جوارك يا حبيبتى

الرحيبة

هل ترين هاتين اليدين ؟

لقد قاستا الأرض

لقد استخرجتا المعادن والغلال

لقد صاغتا السلم والحرب

لقد أزالتا المسافات

التى تفصل البحار والأنهار .

ومع ذلك ،

حين تلمسان جسدك يا صغيرتى

يا حبة القمح ،

يا عصفورتى ،

لا تملكان أن تحتوياك

وتتعبان إذ تنشدان

الحمامتين التوأم

اللتين تستريحان أو تطيران

فوق نهديك

إذ هما تتحسسان أبعاد ساقيك

وتتعانقان في نور خصرك

أنتِ لي كنز

أكثر رحابة من البحر وروافده

وأنتِ بيضاء وزرقاء ورحيبة

كالأرض وقت حصاد الكروم .

وفي هذا النطاق ،

من قدميكِ الى جبينك

ماشيا ، ماشيا ، ماشيا ،

سأقضي حياتي .

أيتها الجميلة

أيتها الجميلة :

كما تشق المياه

برقا عريضا من الزَبَد

فى وسط صخور النبع البارد ،

هكذا تفعل الابتسامة التى تضئ وجهكِ

يا جميلة .

أيتها الجميلة :

يا ذات اليدين الرقيقتين

والقدمين الدقيقتين

لكأنكِ مُهر من فضة

تمشين كزهرة الدنيا

فهكذا أراكِ

يا جميلة .

أيتها الجميلة :

إن لكِ عشا نحاسيا

مضفورا حول رأسكِ ،

عش له لون العسل الداكن

حيث يتوهج قلبى ويستريح

يا جميلة .

أيتها الجميلة : إن وجهك لا يسع عينيك،

إن الأرض كلها لا تسع عينيك

ثمة بلدان وثمة أنهار

فى عينيكِ

إن موطنى فى عينيكِ

وأنا أمشى فيهما

وهما يضيئان لى الدنيا

حيثما مشيت

يا جميلة .

أيتها الجميلة : إن نهديك رغيفا خبز

مجبولان من قمح الأرض

ومن قمر ذهبى

ياجميلة .

أيتها الجميلة : إن خصركِ

قد صاغه ذراعاى

على صورة نهر

تدفق ألف سنة

عبر جسدك الجميل

يا جميلة .

أيتها الجميلة :

ليس من شئ يماثل ردفيك

وربما كان للأرض -

فى مكان ما خفى مستور -

تدويرة جسدكِ وشذاه

ربما ، فى مكان خفى مستور

يا جميلة .

أيتها الجميلة ،

يا جميلتى ٠

إن صوتك وبشرتك وأظافرك

أيتها الجميلة ، يا جميلتى ،

وجودكِ ، نورك ، ظللك ،

أيتها الجميلة ،

كل هذا هو لى أنا ، يا جميلة

كل هذا لى ، لى .

وحين تمشين أو تستريحين

وحين تغنين أو تنامين

وحين تعانين أو تحلمين ،

دائما ،

أنتِ لى ، يا جميلتى ،

دائما .

الغصن المسروق

سندلف سويا

حين يهبط الليل

كيما نسرق غصنا مزهرا

سنتسلق الجدار

فى عتمة الحديقة الغريبة عنا

ونغدو مجرد ظلين فى الظلال .

لم ينقض الشتاء بعد

وتبدو شجرة التفاح

وقد تحولت بغتة

الى شلال من النجوم العاطرة

سندلف حين يهبط الليل

حتى نصل الى قبته الراجفة

وستسرق يداى ويداكِ الصغيرتان

النجوم .

وفى سكون

يدلف مع خطواتك

خطوة العطر الصامتة

وجسد الربيع الصافى

بأقدامه المرصعة بالنجوم

الى منزلنا

فى الليل وفى الظل .

الابن

آه يا بني ،

أتعرف ، أتعرف

من أين أتيتَ ؟

.

من بحيرة

مليئة بالنوارس البيضاء الجائعة

الى جوار مياه الشتاء

اصطنعنا هى وأنا

حذوة نار حمراء

وأنهكنا شفاهنا

من تقبيل روح أحدنا الآخر

ونحن نلقي كل شئ للنيران

فنحرق فيها حياتينا

هكذا جئتُ الى الدنيا .

ولكنها

كي تراني وكي تراكَ

عبرتُ البحار

وأنا ،

كي أطوق خصرها النحيل ،

مشيتُ الأرض طولا وعرضا

وسط الحروب والجبال

وسط الرمال والأشواك .

هكذا جئتَ الى الدنيا .

لقد جئتَ من أمكنة عديدة

من المياه ومن الأرض ،

من النيران ومن الثلوج ،

من بعيد

تمشى نحونا نحن الاثنين

حتى وددنا أن نعرف

ما شكلك

وماذا ستقول لنا

لأنك تعلم أكثر

عن العالم الذى أعطيناك إياه .

ومثل العاصفة العاتية

نهز شجرة الحياة

حتى أشد أعواد جذورها خفية

وها انتَ تستبين

منشدا بين الأوراق

على أعلى فرع من فروعها

نصل اليه معك .

الأرض

لقد استسلمت الأرض الخضراء

لكل ما هو أصفر ذهبى :

حصاد ، مراع ، أوراق ، حبوب .

ولكن ،

حين يرتفع الخريف

برايته الرحيبة

ما أرى إلا أنتِ

فشعركِ عندى

هو ما يغربل حبات القمح .

إنى أرى الآثار

مجبولة من الصخر العتيق المحطوم

ولكن

إذا أنا لمست بأصابعى

الندبة الحجرية

يستجيب جسدك لى

وتتعرف أصابعى بغتة

وهى راجفة

على حلاوتك الدافئة .

إنى أسير مع الأبطال

تزين صدورهم

نياشين الأرض والغبار

ومن خلفهم

تسيرين صامتة

بخطوات قصيرة .

أهو أنتِ أم لا ؟

وأمس ،

حين اقتلعوا الشجرة العتيقة الضئيلة

كيما يروا ما هى

رأيتكِ تخرجين منها

تتطلعين نحوى

من بين الجذور المعذبة الظامئة .

وحين يأتى النوم أخيرا

كيما يمددنى

ويحملنى الى عالم صمتى

ثمة ريح بيضاء عاتية

تدمر نومى

فتتساقط منه الأوراق

تتساقط كأنها السكاكين

من فوقى

فتنزف منى دمى .

وكل جرح من جراحى

له شكل فمك

غياب

لا أكاد أتركك

حتى تندمجين فىّ ،

رقراقة أو راجفة ،

أو قلقة ، وقد أثخنتُك بالجراح

أو قد أترعك الغرام

مثلما تفعلين

حينما تنغمض عيناك على هبة الحياة

التى أقدمها اليك بلا انقطاع

يا حبيبتى

لقد التقينا عطشى

فنهلنا كل ما كان من ماء ودماء

لقد التقينا جوعى

فعض الواحد منا الآخر ،

كما تعض النيران ،

تاركين وراءنا جراحا

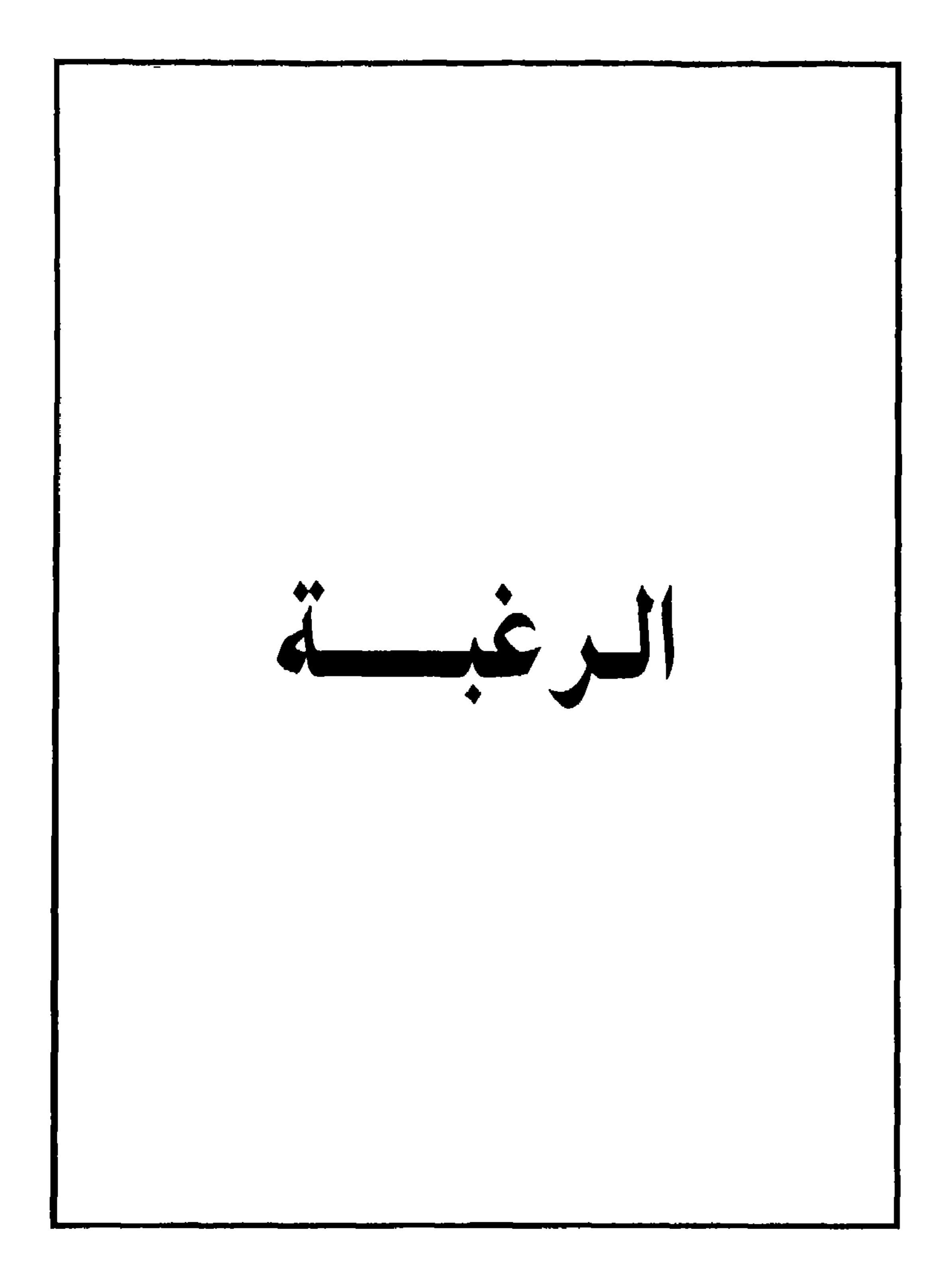
ولكن ،

انتظرينى ،

احفظى لى عذوبتك

وسأعطيك أنا أيضا

وردة يانعة .



الرغبة

النمر

أيا النمر

أترصدك من بين أوراق الشجر

العريضة

كأنها سبائك من المعدن المبلول

ويتطاول النهر الأبيض

تحت الغمام

ثم تأتين الىّ .

وتغمرين عارية

وأنتظر .

وعندئذ

فى وثبة من نار

ودم وأسنان

أهدم نهديك

ورد فيك

وأنهل من دمك

وأحطم أطرافك

واحدا بعد الآخر .

وأبقى سنوات فى الغابة

ساهرا على عظامك

وعلى رمادك

دونما حراك

بعيدا عن أى كراهية أو غضب

وقد نزع منى موتكِ أسلحتى .

وتعبرنى النباتات المتسلقة

دونما حراك تحت الأمطار

حارس لا تلين له قناة

لحبى القاتل .

النسر

إنى أنا النسر .

أطيرُ فوقكِ حين تمشين

وأهاجمك بغتة

فى فورة من الرياح والريش والمخالب

وأرفعكِ

فى زوبعة صافرة

من البرد الإعصارى .

وأحملكِ معى

الى برجى المجبول من الثلج

الى وكرى الأسود
حيث تعيشين وحيدة
وتغطين نفسك بالريش
وتطيرين فوق العالم
دونما حراك فى الأعالى .

أيتها النسرة
فلننقض فوق هذه الفريسة الحمراء
وننزع عنها
ما ينبض فيها من حياة
ثم نرتفع سويا
فى طيراننا الوحشى .

الحشرة

ما بين ردفيك

الى قدميك

أريد أن أقوم برحلة طويلة .

إننى أدقُّ من حشرة صغيرة

أسير على هذه التلال

التى لها لون الشوفان

وعليها آثار رقيقة

أنا وحدى الذى أعرفها

سنتيمترات محترقة

ومنظورات شاحبة .

هنا جبل

لن أخرج منه أبدا .

آه لهذا الطحلب الهائل !

وفوهة بركان

وزهرة من النيران الرطيبة .

وأنزلق فوق ساقيكِ

ناسجا دورة حلزونية

أو نائما وسط الرحلة

فأصل الى ركبتيك

المستديرتين الصلبتين

كأنما أبلغ الذرى الصعبة

لقارة باهرة

وأتعثر نحو قدميكِ

نحو الفتحات الثماني

لأصابعك الحادة

البطيئة ، شبه الجزرية

وأسقط منها

الى خلاء الملاءة البيضاء

ناشدا

فى موجة من العمى والنهم

خطوط وعائكِ .

سورات
الغضب

الحب

ماذا بكِ ؟ ماذا بنا ؟

ماهذا الذى يحدث لنا ؟

إن حبنا حبل سميك

يربط ما بيننا فيثخننا جراحا

فإذا رغبنا الخروج من جراحنا ،

الانفصال ،

فإنه يعقد لنا عقدة جديدة

ويحكم علينا أن ننزف سويا

وأن نحترق سويا .

ماذا بكِ ؟

أتطلع إليك

ولا أرى فيكِ

سوى عينين ككل العيون

وفم ضائع

مثل آلاف الأفواه التى لثمتها

بل أجمل منه

وجسد كالأجساد التى انزلقت تحت جسدى

دون أن تخلّف وراءها أى ذكرى .

ولكم كنتِ تعبرين الدنيا فى خواء

كأنكِ جمرة لها لون الحنطة

دونما هواء ، دونما صوت ، دونما مضمون !

لقد بحثتُ فيكِ عبثا

عن عمقٍ لذراعيّ

نحفران فيه دونما هوادة تحت الأرض

تحت جلدكِ ، تحت عينيكِ ،

لا شئ

تحت نهديك المضاعفين

تيار من الاتساق البللورى

لا يدرى لماذا ينساب منشدا

لماذا ، لماذا ، لماذا ،

يا حبيبتى ، لماذا ؟

وحين أكون فى مواجهتكِ

لا ينتابنى أى شعور بالغيرة

عليكِ

قصيدة جديدة دائما

تعالى وأنت تحملين على ظهرك

رجلا

تعالى وقد شبكتِ مائة رجل

فى شَعرك

تعالى وأنت تحملين ألف رجل

ما بين صدرك وقدميك

تعالى كالنهر

يزخر بالغرقى

ويلتقى بالبحر الهائج

والزَبَد الأبدى

والزمن .

احضريهم جميعا

حيث أنتظرك

فسنكون وحدنا دائما

سنكون دائما أنا وأنتِ

وحيدين على الأرض

لنبدأ الحياة معا

العثرة

إذا عثرتْ قدمكِ مرة أخرى
سأبترها .

إذا قادتكِ يدكِ
الى درب آخر
سينخر فيها العفن .

إذا أنتِ أخذتِ روحك مني
ستهلكين

حتى إذا كنتِ تحيين .

ستظلين ميتة

أو ظلا من الظلال

تمشين على الأرض بدونى

السؤال

يا حبيبتى

لقد دمركِ سؤال .

لقد عدتُ اليكِ

من رحلة عدم اليقين الشائك .

أحبك قويمة

كالحسام أو كالطريق .

ولكنكِ تصرين

على الإبقاء على ركن من الظل

لا أريده .

يا حبيبتى ،
افهمينى
إننى أحبك كلك
من عينيك الى قدميك
أحب أظافرك ودواخلك
كل البهاء الذى تثيرين .
إنه أنا ياحبيبتى
من يقرع بابكِ .
ليس طيفا
ليس الشخص الذى توقف سابقا
أمام نافذتكِ .
إنى أنزع بابكِ جانبا
وأدخل الى حياتكِ كلها :

آتى لأعيش فى روحكِ .

ليس لكِ من الأمر شئ معى .

عليكِ أن تفتحى بابكِ

مقابل بابى المفتوح

عليكِ أن تطيعينى

عليكِ أن تفتحى عينيكِ

كيما أسبر غورهما ،

عليكِ أن ترى كيف أسير

بخطواتى الثقيلة

فى كل الدروب

الى حيث كانت عيناكِ فى انتظارى

مغمضتين .

لا تخافى ،

إني لكِ .

غير أنني لست عابرا أو سائلا

إنما أنا مالككِ

الذي كنتِ تنتظرين

وأنا أدخل الآن

الى حياتكِ

كيلا أخرج أخرج أبدا بعد ذلك

يا حبي ، يا حبي ، يا حبي ،

كيما أبقى الى الأبد .

المسرفة

لقد اخترتك من بين كل النساء

كيما تعيدين على الأرض

رقصات قلبى مع عيدان القمح

أو الحروب التى يخوضها دونما حدود

عندما تدعوه الضرورة الى ذلك .

وإنى لأسألكِ

أين ابنى ؟

ألم أكن أنتظر ذاتى فيكِ

وأتعرف على نفسى

وأقول لها :

نادينى كيما أظهر في الأرض

لأواصل حروبكِ ورقصاتكِ ؟

أعيدينى الى ابنى

هل نسيتيه على أبواب السرور

أيتها العدوة المسرفة

هل نسيتِ أنك جئتِ الى ذلك الموعد

أهمُّ موعد ،

الموعد الذى سنواصل فيه كلانا

وقد توحدنا معا ،

الكلام من فمك يا حبيبتى ،

بكل ما لم نستطع البوح به من قبل ؟

حين أرفعكِ معى

فى موجة من النيران والدماء

وتتضاعف الحياة فيما بيننا

تذكرى أن ثمة شخصا يهتف بنا

كما لم يهتف بنا أحد من قبل

وأننا لا نرد

بل نبقى وحيدين

نهاب الحياة التى ننكرها .

أيتها المسرفة

افتحى الأبواب

ودعى العقدة العمياء فى قلبكِ

تنحلُّ وتطير بدمى ودمك

فوق أنحاء العالم !

الإساءة

لقد أسأتُ اليكِ يا عزيزتى

لقد مزقتُ روحك .

افهمينى .

الجميع يعرف من أكون

بيد أن "من أكون" تلك

هى بالاضافة الى ذلك

بالنسبة لكِ

رجل .

إنى أتردد فيكِ ، وأسقط

وأقوم ثانية وأنا أتقد بالنيران

وأنتِ ،

من بين الكائنات جميعا

لك الحق أن ترينى فى أوقات ضعفى .

ويدك الصغيرة

المجبولة من الخبز ومن القيثارة

يجب أن تلمس صدرى

حين يبرز الى الأمام للعراك .

من أجل ذلك

فأنا أنشُد فيكِ الحجر الصلب

وأدفع يدىَّ الخشنتين فى دمك

باحثة عن الصلابة والعزم

وعن العمق الذى أنا بحاجة اليه

فإذا أنا لم أجد

سوى ضحكتكِ المعدنية

إذا لم أجد شيئا

أستند عليه فى خطواتى الخشنة ،

يا معبودتى ،

فتقبّلى حزنى وغضبى ،

ويدىّ المعاديتين

تدمران منكِ حدا صغيرا

كيما تنهضين بعد ذلك من الصلصال

وقد جُبلتِ خلقا جديدا

من أجل صراعاتى

البئر

تعوصين أحيانا

تسقطين فى قاع الصمت

فى هوة غضبك المتكبر

ولا تستطيعين العودة إلا بالكاد

إذ لا تزالين تحملين ما عثرتِ عليه

فى أعماق وجودك .

أى حبيبتى

ماذا تجدين فى بئرك المغلق ؟

طحالب ، مستنقعات ، صخور ؟

ماذا ترين عن طريق عيون عمياء

مريرة وجريحة ؟

يا حياتى

لن تجدى فى هوة البئر

الذى فيه تسقطين

ما أدخره أنا لكِ فى الذرى :

باقة من الياسمين المتوج بقطرات الندى

وقبلة أكثر عمقا من الهوة التى فيها تسقطين .

لا تخافى منى

لا تسقطى مرة أخرى فى وهدة ضعيتك

انفضى عنك كلماتى

التى خرجت لتجرحكِ

ودعيها تطير من النافذة المفتوحة

وهى ستعود لى كيما تحرحس

دون أن توجهيها أنتِ ناحيتى

لأنها كانت مثقلة بلحظة قاسية

وستصبح تلك اللحظة

عزلاء من السلاح فى صدرى

ابتسمى لى أيتها الوضاءة

إذا ما أصابك فمى بالجراح .

ما أنا براعٍ حنون

كما تقص الحكايات الخيالية

إن أنا إلا حطاب ماهر

يشاطركِ الأرض والنبيذ وأشواك الجبال .

امنحينى حبك ، أنتِ ، ابتسمى لى ،

ساعدينى أن أكون محمودا .

لا تجرحى نفسك فى
فلا طائل من وراء ذلك
ولا تجرحينى
فإنكِ إنما ستجرحين نفسك .

الحلم

بينما كنت أمشى فوق الرمال
قررت أن أهجركِ .

كنت أخطو فوق طين غامق
يرتجف
وبينما كنت أغوص فيه ثم أخرج منه
قررتُ أن تخرجى منى ،
وأنكِ كنتِ تـُثقلين علىّ كالحجر القاطع ،
وبلورتُ فقدانكِ خطوة خطوة :
استئصالكِ من الجذور

واطلاقكِ وحيدة فى الهواء

وفى تلك اللحظة ،

يا حبيبة قلبى ،

كان ثمة حلم مزعج

يغطيكى بأجنحته المرعبة

كنتِ تشعرين أن الطين يبتلعك

وتنادينني فلا أهرع اليكِ

وكنتِ تغوصين ، دونما حراك ،

دون مقاومة

الى أن غرقتِ فى الرمال الناعمة .

وبعد ذلك

تلاقى قرارى مع حلمكِ

وخرجنا مرة ثانية

من الصدع الذى كان يحطم روحينا

خرجنا مرة ثانية ،

ناصعين ، عاريين ،

غارقيْن فى حب أحدنا الآخر ،

دونما حلم ، دونما رمال ،

مكتمليْن متوهجيْن

وقد بصمتْ علينا النيران بخاتمها .

لو تنسيننى

أريدك أن تعرفى
شيئا واحدا

إنك تعرفين هذا الأمر :
إذا أنا تطلعت الى القمر البللورى
الى الفنن الأحمر
الى الخريف المتباطئ على نافذتى
إذا أنا لمست الرماد
الذى لا يمكن لمسه
وهو الى جوار النيران

أو عـِرق الخشب المتغضن

كل هذا يحملنى اليكِ

كما لو أن كل ما فى الوجود :

العطر ، النور ، المعادن ،

هى سفائن صغيرة

تبحر نحو جزائركِ

التى تنتظرنى .

حسنا ، والآن :

إذا أنتِ توقفتِ عن حبى شيئا فشيئا

فسأتوقف أنا عن حبك شيئا فشيئا

وإذا أنت نسيتنى فجأة

فلا تبحثى عنى

فسأكون قد نسيتكِ بالفعل .

وإذا أنت ظننتِ
أن رياح الرايات التى تعبر حياتى
طويلة ومجنونة
وقررتِ أن تتركينى وحيدا
على شاطئ القلب
الذى تنبتُ فيه جذورى
فتذكرى أن فى ذلك اليوم ،
وفى تلك الساعة ،
سأرفع ذراعيّ
وستخرج جذورى
باحثة عن أرض أخرى لها .

ولكن

لو أن كل يوم

وكل ساعة ،

تشعرين أن مصيركِ هو أنا ،

فى عذوبة لا شبية فيها ؛

لو أن فى كل يوم

تصعد زهرة الى شفتيكِ

بحثا عنى ،

آه يا حبيبتى ، يا صاحبتى ،

فستستعر فى نفسى مرة أخرى

كل هاته النيران

فلاشئ ينطفئ فى نفسى

ولا شئ يغلفه النسيان

فحبى يتغذى على حبكِ

يا حبيبتى ،

وسيكون بين ذراعيكِ ما حييتِ

دون أن يخرج من بين ذراعيا .

النسيان

الحب كله في كأس

كأس رحيب رحابة الأرض ،

الحب كله

مغلف بالنجوم وبالأشواك

أعطيتكِ إياه

ولكنكِ مشيتِ على النار

بقدميك الصغيرتين وكعبيك الملطخين

فأخمدتِه في قلبي .

آه يا لحبى العظيم
وحبيبتى الصغيرة !

إنى لم أكف أبدا عن النضال ،
لم أتوان فى اسراعى نحو الحياة ،
نحو السلام ، نحو الخبز للجميع
ولكنى رفعتكِ عاليا بين ذراعيّ
وسمَّرتكِ الى قبلاتى
ونظرت اليكِ
كما لن تنظر عينا بشرٍ مرة أخرى .
آه يا لحبى العظيم
وحبيبتى الصغيرة !
أنتِ لم تدركى آنذاك مدايا
واختلط عليكِ
الرجل الذى ضحى من أجلكِ

بالدم والحنطة والماء ،

مع الحشرة الضئيلة

التي سقطت على ردائكِ .

آه يا لحبى العظيم

وحبيبتى الصغيرة !

لا تنتظرى أن أعود فأنظر اليكِ

على البُعد

ابقِ مع ما خلّفته لكِ ورائى

تجوّلى مع صورتى المخونة .

أما أنا

فسأواصل سيرى

فاتحا طرقا عريضة ضد الظلال

ممهدا الأرض

موزعا النجوم

على من سيأتى بعدى .

ابقِ على الدرب .

لقد حل الليل بالنسبة لكِ

ولربما عدنا للالتقاء

مع الفجر مرة ثانية .

آه يا لحبى العظيم

وحبيبتى الصغيرة !

الفتيات

أنتن أيتها الفتيات

اللآئى يسعين وراء الحب العظيم

الحب العظيم الرائع

ماذا جرى لكن أيتها الفتيات ؟

ربما كان الأمر

هو الزمن ، الزمن .

لأنه ها هو الآن

الحب العظيم

انظرن كيف يتهادى

ساحبا معه الأحجار السماوية

مدمرا الأزهار والأوراق

فى صخب الزَبَد المضطرم

فى أحجار عالمكن كافة

برائحة المنى والياسمين

الى جوار القمر الدامى !

والآن ،

ها أنتن تلمسن الماء

بأقدامكن الصغيرة

بقلبكن الصغير

ولا تعرفن ماذا تفعلن !

إن بعض الترحالات الليلية

وبعض الأماكن

وبعض النزهات المشوقات

وبعض الرقصات التى لا عواقب لها

أفضل لكن من إكمال المشوار !

فلتموتن من البرد

أو من الشك

فأنا ،

بخطواتى العريضة

سوف أعثر عليها

فى داخلكن

أو بعيدا عنكن

ولسوف تعثر هى علىّ

هى التى لن تخشى مواجهة الحب

هى التى ستنصهر معى

فى الحياة أو فى الموت !

كنت تأتين

إنك لم تجعلينى أتألم

وإنما جعلتينى أنتظر

تلك الساعات المتشابكة

الزاخرة بالأفاعى

حين تسقط منى الروح

وأختنق

كنت تأتين ماشية

كنت تأتين عارية مخموشة

كنت تصلين الى مخدعى دامية

يا عروستى

وحينئذ ،

كنا نمشى طوال الليل

نائميْن

وحين نستيقظ

تصبحين سالمة جديدة

كما لو أن رياح الأحلام الكئيبة

قد خلعت على شعرك من جديد

نيرانا ولهبا

وغمرتْ جسدكِ فى حبات الحنطة والفضة

فأحالته لؤلؤا منثورا .

إنى لم أتألم ، ياحبيبتى

وإنما انتظرتُ وحسب .

كان عليكِ أن تبدلى قلبك
ونظرتكِ
بعد أن لمستِ بيديك
منطقة البحار العميقة
التى أوصلكِ اليها صدرى .
كان عليك أن تخرجى من المياه الصافية
كنقطة رفعتها عاليا
موجة ليلية .
يا عروستى
كان عليكِ أن تموتى وتولدى
وانتظرتك .
أنا لم أتألم وأنا أبحث عنكِ
فقد كنت أعلم أنك سوف تأتين
إمرأة جديدة فيها كل ما أعبد
تخرج من ثنايا المرأة التى لم أعبد

بعينيكِ ويديكِ وثغركِ
ولكن بقلب آخر

طلع فجره الى جوارى
كأنما كان هناك دائما
ليبقى معى الى الأبد .

حيــوات

الجبل والنهر

في وطني ، هناك جبل

في وطني ، هناك نهر

تعال معي

يصعد الليل الى الجبل

ويهبط الجوع الى النهر

تعال معي

من هم الذين يتألمون ؟

لا أعرف . بيد أنهم جزء منى

تعال معى

لا أدرى . بيد انهم ينادوننى

ويهتفون بى : " إننا نتألم " .

تعال معى

ويهتفون بى : " إن شعبك ،

شعبك التعس

ما بين الجبل والنهر

يطحنه الجوع والحزن

لا يريد أن يناضل وحيدا

إنه ينتظرك أيها الصديق

أواه لكِ ، يا من أحب ،
أيتها الصغيرة
يا حبة الحنطة الحمراء .

سيكون النضال مريرا
وستكون الحياة مريرة
ولكنكِ ستاتين معي

الفقر

إذن ، أنت لا تريدين .

يصيبك الفقر بالذعر

لا تريدين أن تذهبى الى السوق

بحذاء ممزوق

وتعودين فى نفس ردائكِ القديم .

يا حبى :

إننا لا نحب البؤس

كما يريد لنا الأغنياء

إننا سنخلعه

كما نخلع ضرسا مسوّسا

ينخر حتى الآن فى قلب الأسنان .

بيد أننى لا أريدكِ أن تخافى منه

فإنه إذا اقترب من مسكنكِ

بسببى ،

إذا طـُرد الفقر أحذيتك الذهبية

الى الخارج

فلا تدعيه يطرد الى الخارج

ضحكتكِ التى هى زاد حياتى .

وإذا أنت لم تستطيعى دفع الإيجار

فاخرجى للعمل ثابتة الخطى

واذكرى ، يا حبى ،

اننى أرقبك

وانــنـا معا

نكوّن أكبر ثروة

تجمعت فوق الأرض .

الحيوات

آهِ ...

لكم أحس بكِ أحيانا

يعتصركِ القلق وأنت معى

أنا المنصور بين الرجال .

لأنكِ لا تعرفين

أن آلافا من الوجوه التى لا ترينها

كانت منصورة معى

وأن آلافا من الأقدام والقلوب

قد سارت معى

وأننى لا أكون

وأننى لا أُوجد

بل أنا واجهة لمن يمضى معى وحسب

وأننى الأقوى

لأننى أحمل فى داخلى

لا حياتى الصغيرة فحسب

بل كل الحيوات

وأنا أسير قدما الى الأمام

لأن لى آلافا من العيون

وأنا أضرب الصخور بقوة

لأن لى آلافا من الأيدى

وصوتى يصل الى كل الضفاف

فى كل البقاع

لأنه صوت كل من لم يتكلموا

كل من لم يغنُّوا

والذين يغنُّون الآن

بهذا الفم

الذى يطبع قبلةً على شفتيك .

الراية

انهضي معي .

ليس من أحد أكثر رغبة مني
في البقاء على الوسادة
التي يبغي جفناك
أن يغلقا الباب
بين العالم وبيني
هناك أيضا
أبغي أن أدع دمي ينام
ملتما بعذوبتك .

ولكن ، انهضى ،

أنتِ ، انهضى ،

ولكن ، انهضى معى

ولنخرج سويا

للنضال يدا بيد

ضد شِباك الشر

ضد النظام الذى يوزع جوعا

ضد منظومة الشقاء

هيا بنا ،

وأنتِ ، يا نجمتى ، الى جوارى

مولودة حديثا من طينتى

وقد عثرتِ حقا على النبع الخفى

وستكونين الى جوارى

وسط النيران

بعينيكِ الجسورتين

ترفعين رايتى عاليا .

حبيبة الجندى

فى وسط معارك الحرب

حملتكِ الحياة

أن تكونى حبيبة الجندى .

كُتب عليكِ أن تسيرى وسط النيران

بثوبك الحريرى العتيق

وأصابعكِ المرصعة بالجواهر الزائفة .

تعالى هنا أيتها الشريدة

تعالى واشربى على صدرى
الندى الأحمر .

لم تريدى أن تعرفى الى أين تذهبين
فقد كنتِ رفيقة الرقص
ولم يكن لكِ حزب ولا وطن .

والآن ،
وأنتِ تسيرين الى جوارى
ترين أن الحياة تسير معى
وأن الموت يكمن وراءها .

والآن ،
ليس بإمكانكِ مرة أخرى
أن ترقصى فى القاعة

بثوبك الحريرى .

سوف يبلى حذاؤك

ولكنك ستتطاولين أنت تسيرين .

عليك أن تسيرة على الشوك

وتخلّفين وراءك نقاطا صغيرة من الدم .

قبلينى مرة أخرى يا حبيبتى

نظفى تلك البندقية أيتها الرفيقة .

ليست النيران وحدها

آه ، أجل ، إنى أذكر

آه ، عينيكِ المنغلقتين

كما لو يملأهما من الداخل

نور أسود .

جسدكِ كله

كاليد الممتدة

كغصن قمرىٍ أبيض

والنشوة ، ٔ

حين يقتلنا شعاع برق

حين يصيبنا خنجر بالجراح فى جذورنا

ونور يضرب ؛ عرتا

وحين نعود شيئا فشيئا

الى الحياة مرة أخرى

كأنما ننبجس من أعماق المحيط

كأنما نعود من السفينة الغارقة

مثخنين بالجراح

وسط الصخور والطحالب الحمراء

ولكن ،

ثمة ذكريات أخرى

لا زهور الحرائق فحسب

بل براعم صغيرة

تظهر فجأة

حين أكون فى القطارات

أو أسير فى الشوارع .

أراكِ تغسلين مناديلى

وتنشرين على النافذة

جواربى الممزوقة .

أرى هيأتكِ

التى يطغى عليها السرور الكامل

كأنها ومضة من اللهيب

دون أن تدمركِ .

مرة أُخرى

أيتها المرأة الصغيرة

لكل الأيام

مرة أخرى كائن إنسانى

إنسان متواضع

فقير فى عزة

كما عليكِ أن تكونى

كي تصبحىَ

لا تلك الزهرة السريعة

التى يُذبلها رماد الحب

بل الحياة كلها

بالصابون والإبر

بالرائحة التى أحبها

للمطبخ الذى ربما لن يتوفر لنا أبدا

والذى ستكون فيه يداك

بالنسبة لى

بين البطاطس المقلية

وثغرك يغنى فى الشتاء

الى أن نصل المشويات

هما السعادة الدائمة على الأرض

آه يا حياتى

لسبب النيران وحدها

هى التى تحترق فيما بيننا
بل الحياة كلها ،
القصة البسيطة
الحب البسيط
لأمرأة ورجل
مثل كل الآخرين .

الميِّتة

لو أنكِ فجأة لم تعودى موجودة

لو أنكِ فجأة لم تعودى على قيد الحياة

سأواصل أنا حياتى

إنى لا أجسر

لا أجسر على كتابة هذا

لو أنك تموتين

سأواصل أنا حياتى

لأنه ،

حيث لا يكون ثمة صوت إنسان ،

هناك صوتى .

حيث يُرجم السود

لا يمكن أن أكون ميتا .

حيث يدخل إخوتى السجون

سأدخل أنا معهم .

وحين يصل النصر ،

لا نصرى أنا بل النصر الأعظم ،

يجب علىّ أن أتكلم

حتى لو كنتُ أخرس :

سأراه يصل

حتى لو كنتُ أعمى .

كلا ، سامحينى .

إذا لم تكونى على قيد الحياة ،

لو أنكِ ، يا حبيبتى

يا حبى ،

لو انكِ متِّ

ستسقط كل أوراق الشجر على صدرى

ستمطر الدنيا على روحى ليلا ونهارا

سيحرق الثلج قلبى

سأسير مع البرد والنيران والموت والثلج

سترغب قدماى أن تسيرا الى حيث ترقدين

ولكن

سأواصل حياتى

لأنكِ قد أحببتنى ،

فوق كل شئ ،

عنيدا

ولأنكِ ، يا حبيبتى ،

تعرفين أننى لست رجلا واحدا فحسب ،

بل إننى جميع الرجال .

أمريكا الصغيرة

حين أتطلع الى شكل أمريكا على الخريطة

أراكِ أنتِ يا حبيبتى :

مرتفعات النحاس على رأسكِ

ونهداك هما الحنطة والثلج

وخصركِ النحيل

أنهارٌ جارية نابضة

وتلال ومروج عِذاب

وتُنهى قدماكِ

جغرافيتهما المجبولة من النضار المسبوك

فى برد الجنوب .

يا حبيبتى ،

حين ألمسك

لا تستكشف يداى مباهجكِ فحسب

بل أفنانا وأراضى ،

فواكه ومياها ،

الربيع الذى أحبُ ،

قمر الصحراء ،

صدر الحمامة البرية ،

ونعومة الأحجار

التى صقلتها مياه البحر أو الأنهار

وكثافة الأيكة الحمراء

حيث العطش والجوع يكمنان .

وهكذا ،

يرحب بى وطنى الرحيب

أمريكا الصغيرة

فى جسدكِ .

وأكثر من ذلك :
حين أراك مضطجعة
أرى فى بشرتكِ
فى لونكِ الشوفانى
هوية ودادى ،
لأنه من فوق كتفيكِ
ينظر لى قاطع عيدان قصب السكر
فى كوبا المتوهجة
وقد غطته حبات العرق السوداء
ومن عند جيدكِ
يتغنى لى بأسرارهم
صيادون يرتجفون فى بيوت الضفة الرطيبة
وهكذا ، فعلى طول جسدكِ ،

يا أمريكا الصغيرة المعبودة

تقطع الأرض والشعوب

حبل قبلانى

وحينئذ

لا يسعل جمالك النيران فحسب ،

النيران التى نتوهج فيما بننا

دون أن ننطفئ ،

بل هو أيضا ينادينى

مع حبك

ويهبنى عبر حياتك

حياتى التى أفتقدها

ويضفى الى مذاق حبك

الصلصال ،

وقبلة الأرض التى تنتظرنى

أنشودة وإنباتات

مذاق فمكِ ، لوْن بشرتكِ

بشرتك ، فمك ،

فاكهتى

التى خرجتُ بها

من تلك الأيام الخاطفة

قولى لى ،

هل كانت كل هذه الأشياء الى حواركِ

على الدوام

عبر السنين وعبر الترحال

وعبر الأقمار وعبر الشموس

والأرض والنواح والمطر والفرح ،

أم أنها تخرج الآن فحسب

من وسط جذورك

كما يُخرج الماء من الأرض اليباب

إنباتات لا عهد لها بها

أو كما يصّاعد مذاق الأرض

الى شفاه الجرة المنسية ؟

لا أعرف ، لا تقولى لى ، أنت لا تعرفين .

لا أحد يعرف تلك الأشياء .

ولكن ،

حين أدنو بكل حواسى

الى نور بشرتكِ

فإنك تختفين

تذوبين كرائحة فاكهة حمضية

وحرارة الطريق

ورائحة الذُرة إذ ينفرط عقده

وزهر عسل الأصيل الصافى

وأسماء الأرض المغبرة

والعطر المطلق لوطننا :

المغنوليا والأكمة ،

الدم والدقيق ،

وخبب الجياد ،

وقمر الضيعة المغبر ،

والخبز الطازج :

آه ،

كل شئ يعود من بشرتكِ الى فمى

يعود الى فؤادى

يعود الى جسدى

وأعود معك

لأكوّن الأرض التى تكوّنينها :

إنكِ فى نفسى الربيع العميق

أعود معكِ

لأعرف فيكِ كيف أنمو .

سنواتكِ الغضة

التى كان يجب أن أشعر بها

تنمو حولى كالأغصان

الى أن ترى

كيف أن الشمس والأرض

قد جعلتكِ من نصيب يدىّ الحجريتين ،

الى أن تجعلى النبيذ يغنى فى عروقى
عنبةً عنبة
لقد أعانتنى الرياح أو الحصان
بخروجهما عن مسارهما
أن أعبُر من خلال طفولتكِ
أنتِ التى شاهدتِ السماء ذاتها كل يوم
وطين الشتاء الأسمر ذاته
وأغصان أشجار البرقوق التى لا نهاية لها
وحلاوتها ذات اللون القرمزى .
كيلومترات قليلة من الليل فحسب
والمسافات المبتلة للفجر فى الريف
وحفنة من الأرض تفصل بيننا ؛
الجدران الشفافة التى لم نعبرها
الى أن وضعت الحياة بيننا بعد ذلك
كل البحار وكل الأرض

ونقترب من بعض رغم المسافة
يبحث أحدنا عن الآخر خطوة خطوة
من محيط الى آخر ،
الى أن رأيتُ السماء تحترق
وشعركِ يطير طيرانا فى النور
وهرعتِ الى قبلاتى
بنيران شهاب مطلق السراح
وحين انصهرتِ فى دمائى
تلقيتُ فى فمى
حلاوة البرقوق البرى
لطفولتنا
وضممتكِ الى صدرى
كما لو أننى قد استعدتُ
كل الأرض وكل الحياة .

أى فتاتى المتوحشة

كان علينا أن نستعيد الزمن

وأن نمشى الى الخلف

فى بُعد حياتينا

قبلةً قبلة

نجمع من مكان ما منحناه دونما بهجة

ونكتشف فى مكان آخر

الدرب الخفى

الذى راح يدنى قدميكِ الى قدمىّ

وبهذا ، عبر فمى ،

ترين مرة أخرى النبتة غير المكتملة

لحياتكِ

تمد جذورها

نحو قلبى الذى ينتظرك .

وتنضم الليالى

واحدة وراء أخرى

فيما بين مدننا المتباعدة

الى الليلة التى تجمع بيننا .

ونور كل يوم ،

باشتعاله أو بهدوئه

يهب نفسه لنا

فيهرب من أسر الزمن ،

وبهذا

يكشف الستار عن كنزنا

فى الظلال أو فى الضوء

ومن ثم

تطبع قبلاتنا القبلات على وجه الحياة :

ويسطع الحب كله فى حبنا

وينتهى العطش كله فى عناقنا

ها نحن الآن أخيرا وجها لوجه

لقد التقينا

لم نخسر شيئا

لقد جاس أحدنا بالآخر

شفةً بشفة

ولقد تغيرنا ألف مرة

بينما الموت والحياة

وكل ما حملناه معنا

ألقيناه فى البحر

فأصبح كالنياشين المهجورة ،

وكل ما تعلمناه

لم ينفعنا فى شئ

فبدأنا من أولٍ وجديد

موت وحياة .

وها نحن هنا باقيان

طاهران ،

بالطهر الذى نخلقه

أكثر رحابة من الأرض

التى لم تضيِّعنا ،

خالدان

كالنار التى ستستعر

طالما كانت هناك حياة .

حين أصل الى هنا تتوقف يداى

ويسأل أحدهم : قل لى

لماذا ، كما الموجات على الشاطئ المتفرد ،

تروح كلماتكَ وتجئ الى جسدها ؟

أهي الشكل الوحيد الذي تحبه ؟

وأجيب : إن يديّ لا تكِلان منها

ولا تهدأ قبلاتي

فلماذا أسحب الكلمات

التي تعيد أثر لمستها الحبيبة

الكلمات التي تنغلق دونما جدوى

كالماء في الشبكة

سطح أنقى موجة حياة وحرارتها ؟

وأنتِ ، يا حبي ،

إن جسدكِ ليس هو فحسب

الوردة التي تتطاول في الظلال

أو تحت نور القمر

ليس فحسب حركة أو حرقا ،

عملا دمويا أو ورقة من نار ،

ولكن بالنسبة لى

فأنتِ التى أحضرتِ الى أرضى

الطين الذى يذكرنى بطفولتى ،

موجات الشوفان ،

القشرة الدائرية للفاكهة الداكنة

التى انتزعتها من الغابة ،

رائحة الخشب والتفاح ،

لون المياه المستكنة

حيث تسّاقط فاكهات خفيات

وأوراق عميقة .

آه يا حبى

إن جسدكِ يتطاول ،

كالخط الصافى فى الكأس البللورية ،

من الأرض التى تعرفنى .

وحين عثرتُ عليكِ مشاعري

استجبتِ بالنبضات

كأنما تتساقط بداخلك

الأمطار والحباتَ .

آه ، فليقولوا لي

كيف أستطيع أنا أن ألغيكِ من حياتي

وأن أمنع يديَّ من أن تمسكا بكِ

وأنزع النيران من كلماتي

أيتها العذبة

أريحي جسدكِ في تلك الخطوط

التي تدين لكِ بأكثر مما تعطيني لمساتكِ

عيشي في هذه الكلمات

ورددي فيها العذوبة والنيران

ارتعشي وسط حروفها

ونامي في اسمي

كما نمت من قبل فى قلبى ،

وهكذا غدا ·

ستحفظ كلماتى

أغوار شكلك

ومن سيسمعها يوما ما

سيتلقى هَبَّةً من رياح القمح وشقائق النعمان

وسيبقى هناك جسد الحب

لا يزال يتنفس على وجه الأرض

خيط القمح والمياه

البللور والنيران

الكلمة والليل

العمل والغضب ـ
الظل والحنان ،
قمتِ أنتِ رويدا رويدا
بخياطتها فى جيوبى المثقوبة
ولم تقومى فحسب بانتظارى يا حبيبتى
فى المناطق الراجفة
حيث يتوحد الحب والاستشهاد
كأنهما ناقوسان من الجمر المتوهج ،
بل وأيضا
فى أدق وأصغر الواجبات العِذاب .
إن زيت إيطاليا الذهبى
قد صاغ هالتكِ
فأصبحتِ قديسة المطبخ والخياطة
وفى غنجكِ الصغير
الذى يتمهل أمام المرآه

وبيديكِ ذات الأوراق
التي يحسدك عليها الياسمين
تغسلين الأواني وتغسلين ملابسي
وتضمدين جراحي .
أي حبيبتي ،
لقد وصلتِ الى حياتي
جاهزة كشقائق النعمان
وكالمحارب الجسور :
إن البهاء الحريري
أعبره مع الجوع والعطش
اللذين جلبتهما الى هذا العالم
من أجلكِ فحسب .
ومن تحت الحرير
استبانت الفتاة الفولاذية
التي ستصارع الى جواري

ياحبى ، يا حبى ،

ها هنا نلتقى

حرير وحديد

اقتربى من شفتيا .

ولأن الحب

يحارب لا فى زراعاته المحترقة فحسب

بل وأيضا فى أفواه الرجال والنساء ،

فسأنتهى بأن أقاتل

أولئك الذين يريدون أن يزرعوا

زهرتهم المقيتة

ما بين صدرى وعبيركِ الفواح .

لن يستطيعوا أن يقولوا لكِ

أسوأ مما قلته أنا لكِ من قبل

يا حبيبتى .

لقد عشتُ فى المروج قبل أن أعرفكِ

ولم أنتظر أن يأتى لى الحب

بل كنتُ فى وسط الشجيرة

وهجمتُ على الوردة

ماذا بوسعهم أن يقولوا

أكثر من ذلك ؟

لستُ طيبا أو سيئا

بل أنا مجرد إنسان ،

وسيضيفون عندذاك

ما يحدق بحياتى من أخطار

وأنتِ تعرفينها

وشاركتينى فيها بكل حماس .

حسنا .

إن تلك الأخطار هى أخطار الحب

الحب الكامل

تجاه الحياة

تجاه كل الحيوات

فإذا جلب ذلك الحب

الموت أو السم

فإني واثق أن عينيكِ الواسعتين

حين أغمرهما بقبلاتي

سينغلقان في فخر

في فخر مزدوج

يا حبيبتي

فخركِ وفخري .

بيد انهم سيسعون أولا الى أذني

كي ينسفوا البرج

برج الحب العذب القاسى

الذى يربط بيننا

وسيقولون :

إن تلك التى تحب

ليست بالمرأة المناسبة لك

فلماذا تحبها ؟

إننا نعتقد أن بوسعكَ

العثور على من هى أجمل منها

وأكثر جدية وأكثر عمقا

وأكثر أشياء أخرى

أنت تعرف ما نعنى ...

انظر كيف هى ضئيلة

ورأسها كيف هو

وانظر الى ملابسها ،

وهلم جراً وهلم جرا .

وأنا أقول ما يلى :

إنى أحبكِ كما أنت

بملابسكِ هذه

وهيئة شعركِ

وطريقة ابتسامتكِ

خفيفة كالمياه

مياه النبع الصافى فوق الصخور

أحبكِ هكذا ، يا حبيبتى .

أنا لا أطلب من الخبز أن يعلّمنى شيئا

وإنما أطلب منه ألا يُنقصنى

فى أى يوم من أيام حياتى .

وأنا لا أعرف شيئا عن الضوء

مم يأتى أو الى أين يذهب

وإنما أريده فحسب أن ينير طريقى

وأنا لا أطلب تفسيرا من الليل

بل أنتظره كيما يلفنى بردائه .

وهكذا أنتِ :

خبزا وضوءا وظلا .

لقد دخلتِ حياتى

بما حملتِه معكِ ،

وكنتُ فى انتظاركِ

مجبولة من الخبز والنور والظلال

وهكذا أنا فى حاجة اليكِ

وهكذا أنا أحبكِ

أما أولئك الذين يودون

أن يسمعوا غدا ما لن أقوله لهم

فليقرأوه ها هنا

وليتقهقروا اليوم

لأن وقت تلك الحجج مازال مبكرا .

غدا

سوف نعطيهم فحسب

ورقة من أوراق شجرة حبنا

ورقة

ستسقط على الأرض

كأنما خلقتها شفتانا

كأنها قبلة تسقط

من ذُرانا التى لا تُقهر

كيما تبين

نيران حبنا الحقيقى

وعذوبته

أنشودة العرس

هل تذكرين يا حبيبتى
حين وصلنا أخيرا
وسط الشتاء
الى الجزيرة ؟
كان البحر يرفع الينا
كأسا من البرد
وكانت عرائش اللبلاب
تهمهم على الجدران
وتُسقط أوراقا عتماء

فى خطى طريقنا

وكنتِ أنت أيضا

ورقة صغيرة

ترتجفين فوق صدرى

وقد أطاحت بكِ رياح الحياة

الى ذلك الموضع .

ولم أركِ فى بادئ الأمر

لم أعرف أنكِ تسيرين الى جوارى

واتحدت مع خيوط دمى

وتكلمتْ من خلال فمى

وازدهرت معى .

هكذا كان حضوركِ الغافى

ورقة أو فننا خفيا لا يُرى

وعَمَر قلبى فجأة

بالثمار وبالاصوات .

وسكنتِ البيت

الذى كان ينتظركِ قاتما

فأضأتِ المصابيح عندذاك .

هل تذكرين يا حبيبتى

خطواتنا الأولى فى الجزيرة ؟

كانت الأحجار الرمادية تعرفنا

وزخّات المطر

وصيحات الريح فى الظلال

ولكن النيران كانت حديثنا الوحيد

فقد احتضنا الى جوارها

الحب الشتائى العذب

بأذرعنا الأربع .

ورأت النيران

قبلتنا العارية

تتنامى حتى تصل الى النجوم الخفية

ورأت مولد إلألم وموته

كالسيف المحطوم

على صخرة الحب الذى لا يقهره قاهر .

أتذكرين ،

يا من تنامين فى ظلى ،

كيف كان الحلم

يتطاول فيكِ

من نهديكِ العاريين

مفتوحا بقبتيه التوأمين

تجاه البحر

تجاه رياح الجزيرة

وكيف كنت أنا أبحر فى أحلامك

طليقا

فى البحر وفى الرياح

وكنتُ مع ذلك مقيدا غاطسا

فى اتساع زرقة عذوبتكِ ؟

آه أيتها العذبة

يا عذبتى .

لقد غيّر الربيع جدران الجزيرة

وانبجست زهرة

كقطرة الدم البرتقالى ،

وعندها

أطلقتْ الألوان كل أثقالها الصافية

واستعاد البحر شفافيته

وأبرز الليل فى السماء

عناقيده

وهاهى كل الأشياء تتهامس

باسم حبنا

حجرا حجرا ،

نطقتْ اسمنا وقبلتنا .

وتجاوبتْ الأصداء فى الجزيرة
ذات الصخور والطحالب
فى خفايا كهوفها
كالأغنية فى ثغرك ،
والزهرة التى وُلدت
بين ثنايا الحجر
نطقتْ بحروفها الخفية ،
وهى تخطر متمايلة ،
اسمكِ النباتى المتوهج ،
والصخرة المدببة
المرفوعة كجدار العالم ،
عرفتْ أغنيتى
يا حبيبتى الغالية
وتحدثت الأشياء جميعا

بحبك ، بحبى ، يا حبيبتى

لأن الأرض والزمن والبحر والجزيرة

والحياة والمد

والبذرة التى تفتح شفاها

فى أعماق الأرض

والزهرة المفترسة

وحركة الربيع

كلهم يعرفوننا .

لقد وُلد حبنا

خارج الجدران

فى مهب الرياح

فى سكون الليل

فى أعماق الأرض

ولهذا

فإن الصلصال والزهرة ،

الطين والجذور ،

تعرف اسمكِ

وتعرف أن فمي

قد انطبق على فمكِ

لأننا قد بُذرنا سويا في الأرض

ونحن فحسب لم نعرف ذلك

وأننا ننمو سويا

ونزهر سويا

ولهذا

فحينما نعبر ،

يكون اسمك مسطورا على أوراق الوردة

التي تنمو وسط الصخور

واسمي مكتوب في المغارات .

إنها تعرف كل ذلك ،

ليس لدينا أسرار

لقد نمونا معا

ولم نعرف ذلك .

إن البحر يعرف حبنا ،

وصخور المرتفعات الصخرية

تعرف أن قبلاتنا

قد أزهرت فى صفاء لا حد له ،

حين يطل فم قرمزى

من بين ثناياها

مثل حبنا

والقبلة التى توحد بين فمى وفمك

فى زهرة خالدة .

أى حبيبتى ،

إن الربيع الجميل

والزهور والبحر

تحيط بنا

ولكننا لا نبادل بها شتاءنا .

حين بدأت الرياح

تفك شفرة اسمك

التى تردده اليوم

مرارا وتكرارا

حين لم تكن أوراق الشجر تعرف

انكِ ورقة شجر

حين لم تكن الجذور تعرف

انكِ تبحثين عن صدرى .

حبيبتى ، حبيبتى

إن الربيع

يقدم لنا السماء

بيد أن الأرض العتماء

هى اسمانا

إن حبنا

ينتمى للزمن كافة وللأرض كافة .

حين يحب أحدنا الآخر

وذراعى تحت رقبتك الرملية

سننتظر

إذ الأرض والزمن يتغيران

فى الجزيرة

إذ تسقط أوراق الشجر

من التعريشات المتسلقة الصموت

إذ يرحل الخريف

من النافذة المحطومة

ولكننا سننتظر صديقنا

صديقنا ذا العينين الحمراوين ،

النيران ،

حين تهز الريح مرة أخرى

أطراف الجزيرة

ولا تعرف اسم أى أحد ،

وسيبحث عنا الشتاء

يا حبيبتى ،

سيبحث عنا دائما

لأننا نعرفه ،

أننا لا نخشاه

لأن معنا النيران

دائما ،

معنا الأرض

دائما ،

معنا الربيع

دائما .

وحين تسقط ورقة من التعريشات

تعرفين أنتِ يا حبيبتى

أى اسم مسطور على هذه الورقة

إنه اسم لكِ ولى

اسم غرامنا

كائن واحد

السهم الذى اخترق كبد الشتاء

الحب الذى لا يُقهر

نيران الأيام ،

ورقة سقطت فى صدرى ،

ورقة من أوراق شجرة الحياة

أقامت لها عشا ،

وغنَّت ،

ومدت لنفسها جذورا

وأثمرت زهورا وفاكهة .

وهكذا ترين ،

يا حبيبتى ،

كيف أمشى فى الجزيرة ،

فى الدنيا ،

واثق الخطوة فى وسط الربيع ،

مجنونا بالنور فى وسط البرد

أمشى بهدوء وسط النيران ،

أحمل ورقة زهركِ بين ذراعىّ

كما لو كنت

لم أمش قط دونك

يا روحى ،

كما لو كنتُ

لم أعرف المشى قط إلا معكِ .

كما لو كنتُ

لم أعرف الغناء

إلا حينما تغنين .

الرسالة في الطريق

وداعا

بيد أنكِ ستكونين دوما معى .

سترحلين معى

داخل نقطة دم تدور فى عروقى

أو خارجها

قبلةً تحرق وجهى

أو زنارا من نار

حول وسطى

يا عذبتى

تقبلى الحب العظيم

الذى انبثق من حياتى

ثم لم يجد فيك أرضا

كالمستكشف الذى ضل طريقه

فى جزر الخبز والعسل .

لقد لقيتكِ بعد العاصفة

بعد أن غسل المطر الهواء

وبرقت قدماكِ الجميلتان

كالأسماك فى المياه .

يا معبودتى ،

إنى ذاهب الى صراعاتى .

سوف أخمش الأرض

كيما أصنع لكِ مغارة

ينتظركِ فيها قبطانك

وقد غطى الفراش بالزهور .

لا تفكرى بعد يا عذبتى

فى العذاب الذى سري فيما بيننا

كالبرق الفسفورى .

وربما خلّف لنا بعضا من حروقه

لقد ظلّلنا السلام بعد ذلك

لأنى ذاهب الى وطنى كيما أناضل

وبما أن قلبى هو قلب كامل

به شطر من الدماء التى منحتيها لى الى الأبد

وبما أننى أقبض بملء يدى

على كيانكِ العارى

انظرى لى

انظرى لى

لأنى ذاهب يحوطنى البهاء

انظرى لى

في الليل الذي أمخر عبابه

وما البحر والليل إلا عيناك هاتان .

إنني حين أبتعد عنكِ

لا أخرج منكِ قيد أنملة

وسأقول لكِ الآن ما يلي :

إن وطني سيكون وطنك

وسأذهب لأغزوه

لا كيما أعطيه لكِ فحسب

بل كي يكون للجميع

لجميع شعبي .

سيخرج اللص من برجه يوما ما

وسيُطرد الغازي شر طردة

وسوف تنمو كل ثمار الحياة

في راحة يديّ

اللتين تعودتا من قبل على الديناميت
وسأعرف كيف أحنو برقة
على براعم الزهور الجديدة
لأنك أنتِ قد علمتيني الحنان .
يا عذبتي ، يا معبودتي ،
ستأتين معي
كي تناضلي معي جنبا الى جنب
لأن قبلاتك تحيا في قلبي
كالرايات الحمراء

وإذا ما سقطتُ
لن يغطيني الثرى وحده
بل ذلك الحب العظيم الذي غمرتيني به
والذي يحيا في دورتي الدموية .
ستأتين معي
إني في انتظارك هذه الساعة

في هذه الساعة وفي كل ساعة
انتظرك في كل ساعة .
وحين يأتي الحزن الذي أكره
يطرق بابكِ
قولي له إنني أنتظركِ
وإذا أرادت الوحدة منكِ
أن تغيري الخاتم المنقوش عليه اسمي
قولي للوحدة أن تكلمني ،
قولي لها إنني اضطررت الى الرحيل
لأنني ما أنا إلا جندي
وأنني حيث أنا الآن ،
تحت الأمطار أو تحت النيران ،
في انتظارك يا حبيبتي .
إنني أنتظركِ
في الصحراء الأشد ضراوة

والى جوار شجرة الليمون المزهرة

وفي كل الأنحاء

حيثما توجد حياة ،

حيث يولد الربيع

في انتظارك يا حبيبتي .

حين يقولون لك :

هذا الرجل لا يحبك

فتذكري أن قدميّ

وحيدتان في هذه الليلة

ويبحثان عن القدمين العذبتين

الصغيرتين

اللتين أعبدهما

يا حبيبتي .

حين يقولون لك انني قد نسيتك

وحتى إذا كنت أنا الذي أقول لك ذلك

إذا كنت أنا القائل

فلا تصدقينى

فمن ذا الذى بإمكانه

أن يقطعكِ من قلبى

ومن ذا الذى سيتلقى دمى

حين أتوجه اليكِ داميا ؟

بيد أننى أيضا

لا أستطيع أن أنسى شعبى

سأذهب لأناضل فى كل شارع

خلف كل حجر

وحبكِ يساعدنى كذلك

فهو زهرة منغلقة

تغمرنى فى كل وقت بأريجها الفواح

ثم تنفتح فجأة فى داخلى

كأنها نجمة هائلة .

يا حبيبتى ،

لقد أسدل الليل أستاره .

المياه السوداء ،

والدنيا النائمة ،

تحوطانى .

وسيجئ الفجر بعدذاك

وفى هذه الأثناء

أكتب اليك كيما أقول لك :

أحبك

كيما أقول لك

أحبك

حاذرى ، نقيةً ،

انهضى

دافعى عن حبنا يا حبيبتى

إنى أتركه معك

كأنى أترك حفنة من البذور

فمن حبنا

ستولد حيوات

وسيشربون المياه فى حبنا

وربما سيأتى يوم

يقوم فيه رجل وإمرأة

مثلنا نحن الاثنين

يلمس هذا الحب

وسيكون ما يزال من القوة

بحيث يحرق أيدى من يلمسونه .

من كنا ؟

ماذا يهم ذلك ؟

سيلمسون هذه النيران

وستنطق النيران ، يا حبيبتى .

باسمك البسيط

وباسمى ،

الاسم الذى لم يعرفه سواك

لأنكِ الوحيدة على الأرض

الذى يعرف من أكون

ولأنه لم يعرفنى قط

إلا واحدة فقط من يديك الاثنتين

لأنه ما من أحد

قد عرف كيف ومتى

كان قلبى يحترق .

فقط

عيناك الواسعتان الداكنتان

عرفتا

وثغرك الواسع

وبشرتك ، ونهداك ،

وجوفك ، وأعماقك ،

وروحك التى أيقظتُها

حتى تمضى منشدة

الى آخر الحياة .

إنى فى انتظارك يا حبيبتى

وداعا ، يا حبيبتى ، إنى أنتظرك

يا حبيبتى ، يا حبيبتى ، إنى أنتظرك .

وبهذا تنتهى هذه الرسالة

دونما أى حزن :

إن قدمىّ ثابتتان فوق الأرض

ويدى تكتب هذه الرسالة

وأنا فى الطريق

وسأكون دوما فى خضم الحياة

الى جوار الصديق

فى مواجهة العدو

واسمكِ فى فمى

وقبلةُ

لم تفارق قبلتكِ قط .

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٧٠٥٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6127 - 6





«أشعار القبطان» ديوان كامل من قصائد نيرودا الغزلية، صاغ فيها عواطفه الجامحة وحبه الطاغى لماتيلدى أوروتيا، التى تزوجها عام ١٩٥٥. وقد سطر الشاعر هذه القصائد فى فترة من الأسفار الدائمة ما بين مدن الشرق والغرب داعيا للحرية والسلام والإخاء بين الشعوب، وعاصر غرامه الوليد شخصيات مثل بول إيلوار وجورج امادو وناظم حكمت وبابلو بيكاسو. وقد نشر الشاعر هذا الديوان لأول مرة عام ١٩٥٢ غفلا من اسم المؤلف، ربما للنبرة الذاتية التى تتسم بها قصائده، ولم يضع اسمه عليه إلا مع طبعة عام ١٩٦٣. ويضم الديوان ٤٢ قصيدة، تزخر كلها بالصور والاستعارات والأخيلة الأصيلة التى يتميز بها نيرودا فى كل شعره.

ومترجم الديوان عن أصله الإسبانى هو ماهر حسن البطوطى، الذى أصدر من قبل ديوانين آخرين لنيرودا هما «عشرون قصيدة حب وأغنية يأس» و« اسبانيا فى القلب». وقد عمل لمدة خمس سنوات فى مدريد. قبل أن ينتقل للعمل مترجما ومحررا بالأمانة العامة للأمم المتحدة بنيويورك منذ عام ١٩٧٨.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب